مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد (23) – العدد (01) (جوان، 2022) - ص 683- 698
ISSN 1111-5149 /E. ISSN 2430-2588

القلق الوجودي

Existential Anxiety

نورة شملال* ، (جامعة الجزائر 2)، noura.chemlal@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام	2021-03-10	تاريخ القبول	2022-01-23

ملخّص

يعتبر القلق الوجودي الإنســـاني من أهم الموضـــوعات التي تناولتها الفلســـفة الوجودية التي تهتم بالذات في تجربتها الفردية. وقد تســـاءلت عن طبيعته وبواعثه وعن قيمته، ويعتبر "كيركجارد" أول من قدّم بحثا كاملا في هذه الظاهرة في كتابه الشهير "مفهوم القلق " وفيه يشرح ما لهذا الشعور من علاقة بالخطيئة الأولى. إنه قلق الذات المفردة في تجربة تحقيق الإيمان المسـيحي وأما "هايدجر" فهو يجعل من هذا الشـــعور ما يكشـــف للذات ذاتيتها وعن إمكان تحقيق الأصـــالة والتحرّر من الوجود الزائف الذي هو العالم اليومي. بينما سارتر يتجاوز فكرة القلق من الموت لدى "هايدجر" نحو القلق إزاء الأنا لأنه يعتبر الإنســـان الكائن المحكوم عليه بالحرّية، ينهي هذا العمل إلى اتفاق هؤلاء الفلاســـفة الثلاثة رغم اختلاف توجهاتهم على أن القلق ميزة الإنســـان وحده. وهم يعتبرونه أنطولوجي ومرتبط بالعدم، قيمته تتجلى في أنه يكشف للذات عن الممكن والاختيار والحرّية الإنسانية

الكلمات المفتاحية: القلق؛ الوجود الأصيل؛ الكينونة؛ الحرية؛ العدم.

Abstract

Human existential anxiety is one of the most important topics dealt with by existentialist philosophy, which is concerned with the self in its individual experience. I wondered about its nature, its motives, and its value. Kierkegaard is considered as the first to present a full research into this phenomenon in his famous book "The Concept of Anxiety", in which he explains what this feeling has to do with the first sin. It is the anxiety of the individual self in the experience of realizing the Christian faith. As for Heidegger, he makes this feeling what reveals to the self its self and the possibility of achieving authenticity and freedom from the false existence that is the everyday world. Whereas Sartre goes beyond Heidegger's notion of anxiety about death toward anxiety about the ego because he considers man the being condemned to freedom, this work concludes with the agreement of these three philosophers, despite their different orientations, that anxiety is the advantage of man alone. They consider it ontological and linked to nothingness. Its value is that it reveals to the self the possibility, choice and human freedom.

Keywords: Anxiety, Authentic Existence; Being; Freedom; Nothingness.

---

* المؤلف المرسل

1-مقدّمة

يعد القلق الوجودي الإنساني أحد الموضوعات الكبرى التي اهتمت بها مختلف الدراسات في مجالات السيكولوجية والفن والفلسفة، واعتبرتها مشكلة جوهرية في حياة الذات المفردة. لقد كانت لوحة الفنان العالمي النرويجي "ادبارد ماخ" الشهيرة "الصرخة " صورة فنّية جمالية لمحنة ومعاناة الإنسان الذي ينتابه القلق. وفي معنى هذه اللوحة اختلفت الآراء والتأويلات. الأمر الذي يؤكد صعوبة الإجماع على ما ينطوي عليه الفن من رسالة. فلا يمكن للفن في هذا السياق أن يوضّح لنا حقيقة هذا الشعور، وبخاصة عندما يكون وصفا صامتا؛ إذ ليس بإمكان أحد منا أن يؤكد على طبيعته وعلى مصدره أو الغاية منه. إلى جانب الفن، اهتمت به أيضا الدراسات السيكولوجية، واعتبرته أحد موضوعات علم النفس، فأخضعته للتحليل العلمي المنهجي والموضوعي، إلا أن مثل هذه الظواهر الشعورية تحول دون دراستها العلمية جملة من الصعوبات والعوائق أولها طبيعتها؛ إذ لا يمكن التحكم فيها، فالقلق ليس ظاهرة أو موضوعا محددا مثل موضوعات علوم المادة أو بعض موضوعات العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع، وإنّما يبدو أكثر تعقيدا. وعليه فإّن ما تقف عنده الدراسة العلمية من نتائج، لا يمكن الوثوق بها وفق ما تقتضيه الموضوعية العلمية. إنّ القلق من حيث هو شعور يلازم الإنسان في رحلته الوجودية ينطوي على أبعاد تتجاوز تأويلات الفن وتفسير الدراسات العلمية الموضوعية. وعلى هذا الأساس ارتأينا البحث في هذه الظاهرة من حيث هي مشكلة تناولتها الفلسفة بشكل عام والفلسفة الوجودية بشكل خاص. قدم على سبيل المثال كل من "كيركجارد" و "هايدجر" و "سارتر" أبحاثا مميزة حول موضوع القلق. وباعتبار "كيركجارد" أب الفلسفة الوجودية، فهو أول من قدم بحثا فلسفيا كاملا في معنى هذا الشعور في كتابه الشهير "مفهوم القلق"، ثم أصبحت هذه الظاهرة إحدى المشكلات الأساسية التي تناولها من بعده "هايدجر" في سؤاله: ما الميتافيزيقا؟ وفي كتابه "الكينونة والزمان"، ثم تناولها من بعده الفيلسوف الفرنسي "سارتر" باهتمام فائق في مؤلفه "الكينونة والعدم" وفي كتاباته الفلسفية والأدبية الأخرى. ونحن بدورنا نتساءل مع هؤلاء الفلاسفة عن حقيقة القلق وعن طبيعته ومصدره؟ ثم ما الذي يمكن أن يكشفه هذا الشعور للذات في تجربتها الفردية الوجودية؟ ونتساءل معهم عن مدى وجود إمكانات الخلاص منه؟

2-كيركجارد/القلق طريق نحو الإيمان

أصدر "كيركجارد" كتابه "مفهوم القلق" وفيه يعترف أنّ القلق أصعب موضوع عالجته السيكولوجيا، وترجع هذه الصعوبة إلى طبيعة الموضوع ذاته باعتباره جزئيا ويتعلق بالذات، في حين أن العلم قائم على العام ولا يدرس الموضوعات الجزئية، ومع ذلك اهتمت به (السيكولوجيا) من زاوية الاستعداد السّابق لارتكاب الخطيئة أو بالإمكان الحقيقي للخطيئة،

وهذه هي الحالة التي يهتمّ بدراستها علم النفس " إنه لا يشغل نفسه بنشأة الخطيئة، لكنه يهتم بالكيفية التي ظهرت بها للوجود، لا بواقعة وجودها بالفعل." (Sorien, K, 1949,18)

يربط "كيركجارد" مصطلح الخطيئة الذي استمده من المسيحية بعلم النفس وبموضوع القلق؛ ليفسّر نشأتها وليحلّل من خلاله الحالة الذهنية للفرد قبل وقوعه في الخطيئة الأولى. وكان أن جعل القلق في بداية الأمر أنطولوجيا يعبّر عن نسيج الوجود الإنساني، وهو يلازم الذات في تكوين نفسها وفي حياتها باستمرار. "فليس ثمة حالة يغيب فيها القلق." (Jean, W, 1954, 68)، وهذا يعني أنه مرتبط بتكوين الذات الإنسانية. وليشرح ذلك قدم نظرة أنطولوجية تفترض أنّ هناك حقيقة عليا للفرد، تبيّن أن الإنسان عبارة عن مركب بين الجسم والنفس والروح، فأما الجسم والنفس ينتميان إلى منطقة الزماني، وأما الروح إلى الأزلي، وبهذا المعنى يكون الوجود الإنساني أولا وجودا في الزمن، والذات الإنسانية هي عبارة عن علاقة بين الأضداد. ويؤكد هذا التصور على أن "الإنسان مركب من المتناهي واللامتناهي، من النفس والجسد، من الضرورة والإمكان ... الإنسان مركب." (عبد الفتاح، إ، 1986، 65) والروح هي الخاصية المميزة للإنسان؛ لأنّ علاقة هذا الأخير بالأزلي هي التي تؤسّس ماهيته كالروح، ومن ثم فإن اللّه هو المحور الذي تدور حوله علاقة الذات بنفسها. والذات لا تكون روحا، إلا إذا اختارت موقفها من اللّه، ولها الاختيار من أن تتقرب إلى اللّه أو أن تبتعد عنه. والإنسان لا يصبح روحا إلا في هذا الاختيار، أما قبل ذلك فهو في المرحلة الوجودية الأولى. ومن هذا المنطلق تشرح لنا هذه الفلسفة وتجيب عن سؤال علاقة القلق بتكوين الذات؟

أولا: يصدر القلق من العلاقة التي تقوم بداخل الذات بين المتناهي واللامتناهي، بين الزماني والأزلي، إنه يمثل نقطة التقاطع بين العالمين، والإنسان هنا يكون في وضعية اختيار بين حياة الروح فيدخل مملكة الحرّية، وبين البقاء على حالته الأولى فيبقى في الخطيئة. القلق إذن أساسه هذا المركب ". ولأنّ هذا الشعور من طابع أنطولوجي لدى هذا الفيلسوف، فهو يرى أنه يختلف عن اليأس، وكذلك عن الخوف، ففي كتابه "المرض حتى الموت" يبيّن أن هذا الشعور ليس هو اليأس؛ لأن اليأس يرتبط بالإحباط والفشل، أو بالأحرى بالخطيئة، بينما القلق يرتبط بالإمكان وبالحرّية، وبهذا المعنى فإنه يكمن في الحالة التي تسبق الخطيئة، وهو مرتبط بالعدم. كما يختلف أيضا عن الخوف ذلك؛ لأن الشعور بالخوف يكون تجاه موضوع معين ومحدد، كأن نخاف مثلا من المرض والألم أومن الظلام وغيرها من موضوعات الخطر التي إذا ما تعينت أمكن التغلب عليها وتجاوزها. بينما القلق هو مواجهة الوجود بلا تحديد "إنه حقيقة الحرّية بوصفها إمكانية الإمكان "(Kierkedaard, 38) و "إمكان الحرّية يعبر عن نفسه في حالة القلق." (Ibid., 66)

حينما تكون الذات أمام إمكانات تحقيق ذاتها، واختيار مصيرها ينتابها القلق الذي يرتبط بالحرّية، يقول "كيركجارد": إنّ "القلق هو دوار الحرّية عندما تتطلع إلى إمكاناتها" (عبد الفتاح،

إ، 343) وبتعبير آخر، فإن الحرّية هي الممكن ... أو هي "الانتقال من الإمكان إلى الفعل" (زكرياء، إ، 1963، 55) إنها حرية الاختيار في صنع الذات. والذات في هذه الفلسفة كما ذكرنا عبارة عن مركب، ووجودها الحقيقي هو وجودها كروح. ويترتب عن ذلك أنها ليست معطاة، بل شيء سيوجد ويتكون باستمرار. وهذا يعني أن الذات في عملية صيرورة. وانطلاقا من تأكيد "كيركجارد" على أن "الإنسان مركب، والمركب علاقة بين عاملين، والإنسان بهذا المعنى ليس ذاتا بعد..." (Kierkegaard, S, 1949, 38)، فإن تحقيق الذات لذاتها أو لماهيتها يتم بواسطة الحرّية والاختيار بين حقل الإمكانات المعطاة لها. والحرّية في هذه الفلسفة مرتبطة بالحب الإلهي وهي تميل إلى اختيار الخلود أو اللامتناهي وتجاوز الخطيئة. يحدث خلال الانتقال من الإمكان إلى الفعل أو خلال عملية تحقيق الماهية، إن الإنسان ينجذب ويتنافر أمام مختلف الإمكانات، فيشتد القلق إلى درجة وصفه بأنه " ضرب من عدم الاتزان الذي يسبق الفعل." إنه شبيه بالدوار الذي يصيب الإنسان حينما ينظر في هاوية سحيقة، إنه شعور مزدوج، أو هو شعور عاطف وعطف نافر، كأنه خوف وانجذاب في وقت واحد. وهذا هو قلق الروح من المستقبل باعتبار هذا المستقبل وحده مجال الإمكان، تمارس فيه الحرّية اختيارها. فإذن القلق يكشف عن الحرّية. على هذا الأساس فهو شعور لا تتصف به الملائكة، ولا يتصف به الحيوان؛ لأنهما غير مكيفين بالروح، فالروح هي حقيقة الإنسان وحده. وحينما يؤكد "كيركجارد" على أن القلق ميزة وخاصية إنسانية، فهو يؤكد على الروح التي هي الحرّية في المركب البشري. والقلق تتصف به الذات الإنسانية وهي في مرحلة التكوين كما أشرنا. فقد جاء في كتابه "مفهوم القلق " أنه "لا يوجد القلق عند الحيوان؛ لأنه ليس مكيفا بكيف الروح". (Kierkegaard, S, 1949, 38). بهذه النظرة الأنطولوجية يؤسس "كيركجارد" لنشأة الخطيئة الأولى، ويربطها بالقلق، وهو الجديد في فلسفته. إنه يؤكد على أن "القلق هو الذي يجعل الخطيئة ممكنة " ويشرح هذه الفكرة حينما يتناول الحالة الذهنية الأولى التي عرفها الإنسان الأول(لآدم) ويعتبرها حالة البراءة الأخلاقية؛ لأنها تمثل حالة الإنسان قبل سقوطه في الخطيئة، حيث لم تكن لديه أية معرفة عن معنى الخير ولا معنى الشر، ولم يكن يميز بينهما. ففي هذه الحالة بقيت الروح مجرد حلم لم تبلغ بعد درجة التوليف أو التركيب بين النفس والجسد، ممّا يعني أن الإنسان لم يتعين بعد. إن فكرة التركيب هذه التي نقلها "كيركجارد" من المسيحية ليشرح بها الروح تبدو فكرة غامضة جدا. ولكنها تبدو له ضرورية لتقريب مفهوم القلق إلى أذهاننا، وشرح علاقتها بالخطيئة الأولى أو الأصلية. وفيما يخص حدة القلق لدى الإنسان وهو في حالة البراءة التي لا يدرك فيها معنيي الخير والشر، فقد أضاف فكرة التحريم، فكان لهذا التحريم أو المنع الإلهي أن أيقظ فيه الرغبة في معرفة الأشياء، ممّا يبيّن أن الرغّبة تعني ممارسة الحرّية. وبمعنى أوضح فإن التحريم كشف بدوره عن إمكان الحرّية لدى الإنسان ما دامت الرغبة قد كشفت للإنسان (لآدم) القدرة والإمكان على الفعل قبل أن يدركه أو أن يعرف عنه شيئا. وهذه الوضعية بالذات

هي التي تثير القلق وهو يشتد عندما تصطدم الحرّية بما يعيقها، وهذا ما يسميه "كيركجارد" بالوثبة الكيفية التي تنتجها فكرة العقاب تجاه الفعل؛ ولأن العقاب يجسده الحكم بالموت في حالة العصيان، فذلك ما يزيد من حدة توتر هذا الشعور. إنه قلق الحرّية المعاقة الذي وصفته هذه الفلسفة بالدوار. فالإنسان عندما يرغب في الفعل ويصطدم في الوقت ذاته بما يعيق هذه الرغبة وما يمنع الفعل، يدرك إمكان الحرّية ، فيصاب بأقصى توتر .وهذه الوضعية بالذات توضح معنى عبارة أن "القلق هو دوار الحرّية الذي ينبثق عندما تريد الروح أن تضع المركب و الحرّية، تتطلع إلى إمكاناتها وتتشبث بالتناهي، تدعم به نفسها، وتستسلم الحرّية لهذا الدوار, وبعبارة أخرى ليس القلق سوى حرية ترى نفسها معاقة .يدرك فيها الإنسان عمق الهوة المتسعة أمامه، فيعتريه لون من الدوار، تماما كما يصاب بالإغماء إذا نظر إلى هوة سحيقة، فيسقط فيها؛ لأنه يفقد توازنه كذلك يقع في الألم وهو في شبه غيبوبة _في دوار الحرّية، فإذا انتبه إلى نفسه، وجد أنه سقط في الخطيئة وهو في تلك الحال، وهذا هو الدافع إلى الخطيئة ." (عبد الفتاح، إ، 1986، 354-355)، وبالتالي فإن "القلق يسبق الخطيئة ويتعلق بالإمكان والحرّية " (ريجيس، ج، 1988، 44). يخلص هذا التحليل الى أن القلق كامن في الإنسان، توقظه الرغبة التي تكشف عن الإمكان وعن الحرّية؛ لذلك فهو من أساس أنطولوجي. يمكن أن نسلم بمنطق هذا التحليل وفق المعطيات التي وضعها "كيركجارد" في شرحه لعلاقة القلق بالخطيئة الأصلية غير أنّ هذه النتيجة التي توقف عندها تبقى تثير سؤال كيفية انتقال هذا الشعور إلى البشرية كلّها وأصبح يلازمها باستمرار؟

نفذت الخطيئة الأولى إلى الكون بفعل توارث أجيال الجنس البشري لها. فازدادت الآثام وازداد معها القلق. يوضح "كيركجارد" هذه الفكرة أولا بتمييزه بين القلق الذاتي والقلق الموضوعي. فالأول يتجلى فيما أشار به إلى الحالة الذهنية للفرد قبل وقوعه في الخطيئة، والذي يعكس حالة البراءة كما رأينا. وأما الثاني يتميز به الجنس البشري كله، وهو ناتج عن تكرار الخطيئة بفعل تعاقب الأجيال، ويتحملها البشر عبر التاريخ. فعندما يظهر الفرد يجد نفسه مقيدا بتاريخ البشرية، فيرث عنه فكرة الخطيئة، وهكذا يتحول القلق الذاتي إلى جزء من القلق الموضوعي، والعلاقة بينهما تتحدد في مدى تأثير الجنس البشري على الفرد، وفي مدى استجابته لهذا التأثير. ورغم ذلك تبقى الذات وحدها في تجربتها الوجودية نحو الإيمان.

القلق إذن ملازم للإنسان، وقيمته تتجلى بشكل عام في أنه يكشف عن القدرة على الاختيار، وعن حرية الفعل وبمعنى أوضح، إنه يكشف للذات عن إمكانية تحقيق ذاتها بذاتها، وعن حريتها الكاملة في اتخاذ القرار. وبالنسبة لي "كيركجارد"، فإن القرار يتمثل في حرية الإنسان الفرد في اختيار الإيمان بالغفران من الخطيئة أو عدم الإيمان؛ ذلك لأن مثل هذه المسائل الوجودية المصيرية مسائل تفصل فيها الذات بكل ما تملك من حرية، وإن كان يميل في تصوره إلى

الإيمان المسيحي. تبقى الحرّية هي التي تنتشل الإنسان الفرد من تصورات الحشد، وتسمح له أن يحقق خلاصه بحرية.

إن الذات لا تحقق خلاصها إلا في اللحظة التي توجد فيها أمام الله، وهي نفسها لحظة المعرفة الذاتية. والوجود الأصيل يتحقق في الفعل الذي يراد به المسيح، وفي الفعل الذي يريد به الإنسان نفسه. والنفس لا تصبح حقيقة إلا في المرحلة الدينية؛ لأنّها مرحلة التوليف بين الأبدي والزماني. والخلاص من الخطيئة يتحقق عبر ثلاث مراحل، أولها تعرف بالحسية والجمالية، وهي مرحلة الشهوات والملذات، وفيها تفتقر إلى القدرة على الاختيار واتخاذ القرار، فتبقى في هذه الحال (الذات) مجرد إمكانية وجودية مادامت تملك الاختيار. ولأن الإنسان في هذا المدرج الحسي يغرق في الملذات والشهوات، فينتهي به الأمر إلى الشعور بلامعقولية الحياة وعدم الطمأنينة، وإلى اليأس والعدم. هذا الوضع بالذات يدفع به إلى أن يقرر مصيره بين أن يبقى في العبث وفي المتناهي، وبين أن يحقق وجوده الأصيل. إلا أن الوجود الحقيقي لا يتحقق إلا بعد أن ينتقل الإنسان إلى المرحلة الأخلاقية (التي تسبق المرحلة الدينية) التي تقلق فيها الحرّية بحكم الاختيار. ومعاناة القلق تعني الوثبة التي بها ينتقل الإنسان من مرحلة عدم المعرفة إلى مرحلة بداية المعرفة، والقلق في هذه الحال يخلق داخل الإنسان اهتماما بوجوده الأخلاقي والمفاضلة بين القيم. فالسمة التي تتميز بها الذات في المرحلة الأخلاقية تتمثل في قدرتها على الاختيار واتخاذ القرار. فينتابها القلق الأخلاقي الذي يتمثل في قلق الحرّية وما ينطوي عليه من مخاطرة. فالإنسان يقلق عندما يجازف في اختيار واحد أو أكثر من الإمكانات المتاحة له، وحينما يصدر القرار وهو يحدد مستقبلا لا يراه ولا يتنبأ به. و "كيركجارد" يعتبر القرار ما يتضمن المخاطرة والخوف. "إن الاختيار يجر إلى الخطيئة وإلى المخاطرة، والمخاطرة بطبعها تؤدي إلى القلق "(بدوي، ع، 1980) فالاختيار يتم في جو من الصراع والحيرة، مما يجعل الحرّية تعاني عندما تخاطر في اختيار ما يوضع أمامها من إمكانات، وهي تفصل في إحداها مدركة في الوقت ذاته ثقل مسؤولية اختيارها، فتشتد المعاناة والألم. إن ما تخشاه الحرّية هو إمكانية الوقوع في الشر الذي بداخلنا كما تتصوره هذه الفلسفة، إنه الشر الذي يتجلى في الإغراء والغواية، حينما يصعب على الذات أن تفرق بين قيم الخير والشر وبين الأشياء التي تبدو مزدوجة الدلالة، فليس ثمة ما يساعد على الاختيار الصحيح، والإنسان محصور في قطيعة أنطولوجية. إنه الكائن الذي وجد وحيدا في العالم وسط إمكاناته الخاصة التي عليه أن يخرجها إلى حيز الفعل. أضف إلى كل هذه البواعث للقلق، العدم الذي يترتب عن الحرّية ذاتها، بمعنى أن الإنسان يقرر نقصانه في عملية الاختيار؛ لأنه يختار إمكانية دون الأخرى مما يسمح للعدم بولوج الوجود. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هناك حقيقة كبرى هي الموت الذي يحول دون استمرار التحقيق، وفي هذا السياق يكتب "كيركجارد" "...إن القلق هو

مواجهة الذات لعدمها الخاص."(عبد الفتاح، إ، 342) ويترتب عن هذا كله صلة بين العدم والحرّية والقلق.

إنّ الخلاص من القلق في فلسفة "كيركجارد" يكون بالإيمان الذي يعيد للذات براءتها الأولى، وحتى يتم لها ذلك، لابد لها أن تمر بمراحل ووضعيات وجودية يطبعها القلق والمعاناة، والعلاج هو في أن تقوم بوثبة وجودية يقودها القلق. يبدو أن القلق ليس مشكلة فقط، وإنما حل أيضا. إنّه ذو طابع جدلي، يمثل مشكلة وحلا فهو وسيلة تقودنا نحو المطلق اللامتناهي، وهو أيضا الحل الوحيد لمعضلة الوجود البشري، لكنه ليس أبدا غاية في ذاته. يدعو "كيركجارد" الإنسان أن يعيش في قلق إذا أراد الطمأنينة الأبدية "ذلك هو الطريق الذي ينبغي علينا جميعا أن نسير فيه، أن نعبر جسر التنهدات حتى نصل الى الأبدية." (عبد الفتاح، إ، 23، 24).

يخلص هذا التحليل إلى أن ظاهرة القلق عند "كيركجارد" هي شعور أنطولوجي يعكس التوتر والصراع الداخلي الدائم بين مكونات الذات الإنسانية المتناقضة، بين النفس والجسد، بين المتناهي واللامتناهي، وبين الحرّية والضرورة. ويبين علاقة القلق بسيكولوجيا الحرّية. وبوصفه دوار للحرية، فهو يعتري الذات في أثناء مواجهتها لمستقبلها المليء بالإمكانات، لذلك ميزه عن الخوف لأن وموضوعه هو العدم. وفكرة العدم مرتبطة بالخطيئة الأصلية، والواقع أن هذه الفكرة تبدو غامضة، إلا أن ارتباطها بالقلق جعلها مصدرا مهما تستوحي منه الوجودية بعض تصوراتها في تحقيق الإنسان لكينونته، وفي تحقيق الوجود الأصيل على حد تعبير "هيدجر" و "سارتر".

إن سؤال: كيف يمكن للذات أن تحقق ذاتها ووجودها الأصيل؟ هو سؤال "هايدجر".

3- هايدجر/ القلق طريق نحو الأصالة

اهتم "هايدجر" بمشكلة الوجود الإنساني، فتوقف عند معنى أن يكون الإنسان في العالم؟ وأسس أنطولوجيا الوجود، تتعلق بالوجود الإنساني على خلاف ما كانت عليه الميتافيزيقا التقليدية، وفي كتابه "سؤال الميتافيزيقا" وكذلك في كتابه "الكينونة و الزمان" يؤكّد أنّ الذي يحق له السؤال عن الكينونة هو "الدازين" أو "الكائن هناك" الذي يعني به الوجود الإنساني الذي يقول عنه إنّ "ماهيته تكمن في أن عليه أن يكون " (هيدجر، م، 2012، 111) مما يعني أنه يتميز بأولوية الوجود عن الماهية "فالدازين" ليس مجرّد كائن موجود هناك بين الموجودات، وإنما هو الذي تخصه الكينونة، وهو بذلك لا يوجد على نمط وجود الشيء والواقع، بل يوجد بصفة الإمكان في صورته العامة "يمكن لهذا الدازين أن يختار نفسه في كينونته " (هيدجر، م، 113) بمعنى أن يختار بين نمطي الكينونة الأصالة أو عدم الأصالة، فهو يصنع ذاته بذاته، وبوصفه موجود في العالم ومنفتح عليه، فإن حقيقته "كينونة في العالم ." (هيدجر، م، 224).

إنّ ما يميز "الدازين" عن الكائنات الأخرى هو انفتاحه تجاه ذاته وتجاه العالم؛ لأنّ الوجود الإنساني ليس متمركزا حول نفسه كما هو الأمر في مفهوم الذات محور الفلسفة الحديثة، بل هو كائن أو كينونة منخرجة في أساسها، وانفتاح الموجود الإنساني على العالم يعني انفتاحه على مستقبله وعلى حقيقته بوصفه إمكانات وبوصفه الكائن الذي يتميز عن كل موجودات العالم، وإذا كان الانفتاح خاصية الموجود الإنساني فكيف له ذلك؟

يتم الانفتاح في الوجدان والفهم، ويكتب "هايدجر" في "الكينونة والزمان" "إنّ الطريقتين المقومتين على أصل واحد لما به نكون الهناك نراهما في الوجدان والفهم" (هيدجر، م، 2012، 264) فالكائن هناك يفهم الوجود كأحد مكونات الانفتاح على الوجود، فهو يحدد وجود الإنسان لا ماهيته، وأن الوضع الوحيد الذي يفهم به الوجود هو الإنسان الذي يتصل بالموجودات الأخرى التي تنكشف له." إن الفهم يجب أن يكون على شكل الموجود الإنساني، ومن خلال الفهم يكون الموجود منفتحا على إمكاناته التي تلبي الموجودات الفاهمة " (هيدجر، م، نداء الحقيقة، 1977، 96). وأما الوجدان فهو الشعور الذي ينتاب الإنسان ويكشف له أيضا عن حقيقته. ويفسر "هايدجر" الوجدانية بظاهرتي الخوف والقلق.

الخوف عند "هايدجر" ظاهرة يمكن ملاحظتها من ثلاثة أوجه، ما نخاف منه، والخوف نفسه، والخوف على أو ما نخاف عليه، والخوف معروف، أو بالأحرى موضوعه معين، وهو يوصف بأنه تهديد، يجعل الموجود الإنساني منفتحا بطريقة خاصة. بمعنى أن يدرك أنه موجود هناك، وإلى جانب الخوف، تتضمن الوجدانية ظاهرة القلق التي هي من شأن كينونة "الدازين"، و يبقى القلق الشعور المبهم الذي لا يمكن تحديد مصدره، فما نقلق منه ليس موجودا داخل العالم "فإن ما أمامه القلق هو غير معين تماما " (هيدجر، م، 2012، 353) و موضوعه العدم الكامن فيما وراء الوجود، فحينما يتملك القلق الإنسان، يجد نفسه إزاء تهديد عام موجود في كل مكان دون أن يكون في أي مكان, بمعنى أن ما يثير القلق هو الوجود في العالم، لذلك فهو مرتبط بواقعة وجود الموجود البشري في العالم ."ما أمامه يقلق القلق هو الكينونة في العالم ذاتها " (هيدجر، م، 2012، 355) فما نقلق منه هو العالم كذلك، أو هو الوجود .وإذ اعتبر "هايدجر" القلق ضربا من الوجدان، فإنّه ينسب له الفهم، فالموجود الإنساني يدرك من خلال القلق ضرورة الارتداد إلى الذات، و أن يفهم عالمه. والفهم يجب أن يكون على شكل مشروع يكشف له على تحقيق وجوده الملقى هناك؛ لأنه عندما لا يكون ذاته، يكون مغتربا. والاغتراب بمعنى زيف الحياة وابتذالها، أو ما يسميه "هايدجر" بالسقوط في عالم الانحطاط والعمومية والثرثرة، وهو ما يعنيه بالوجود الزائف أو غير الأصيل.

قلق "الدازين" أو(الأنية) ناتج أيضا عن فهمه أنّ الإمكانيات المقدمة له محدودة، ولا يحقق منها إلا القليل وعلى حساب سائر الإمكانيات، ومع ذلك يحمل "هايدجر" الإنسان مسؤولية الوضع الذي فرض عليه، وإن كان الأمر يتجاوزه، وأن يدرك أنّه لا مفر أبدا من طابع

التناهي في الوجود. وأن الزمان دليل على هذه الحقيقة، فكل ما في الوجود متزامن بالزمان، والزمان يقتضي التناهي. فالقلق ليس فقط قلقا أمام الإمكانيات، وإنما هو أيضا قلق المصير الذي يهدده الموت في كل لحظة من لحظات وجود "الدازين" الذي هو في حقيقته وجود من أجل الموت.

فإذن يكشف القلق للموجود البشري أنّه متناه وصائر نحو الموت "فالكينونة نحو الموت هي ماهيتها قلق" (هيدجر، م، 2012، 473) ويتحدث "هايدجر" عن استباق الإنسان الفرد لحدث موته، فيكشف له عن إمكاناته "فمن شأن الاستباق أن يكشف النقاب للدازين عن ضياعه في ذات الهم، ويحمله أمام الإمكانية التي لا تستعين في أول أمرها بأي رعاية مشغولة لأن يكوّن ذاته، ولكن في رحاب الحرّية نحو الموت النابعة من شعور جارف المنعتقة من أوهام الهم الوقعانية الموقنة بذاتها القلقة " (هيدجر، م، 2012، 473-474). القلق يفتح كذلك الكينونة بما هي على العالم، وينتشلها من والعمومية والانحطاط الذي يطبع اليومي والذي تسقط فيه. فهذا السقوط يغيب عنها حقيقتها، فتعود إلى ذاتها، وأمام إمكاناتها؛ لتدرك أنها ذات حرة. هكذا يكشف القلق عن الحرّية، وأن الإنسان وحده من يملك الإمكانية في أن يأخذ موقفا من الموت؛ لأنه وحده يدرك ويعرف أنه يموت؛ لذلك عليه أن يهتم به كحدث مصيري، ويعطي له معنى في حياته، وأن يتقبله على أنه الإمكانية المطلقة، أو وأكثر إمكانية يمتلكها. ومنه ينتهي إلى أن يجعل منه حدثا ذاتيا لا يخرج عن حرّيته.

الموت عند "هايدجر" ليس حدثا أو عرضا يأتي من الخارج، وإنما هو أعلى إمكانية من إمكانيات الموجود البشري، "ففي القلق أمام الموت يحمل الدازين أمام نفسه بوصفه قد سلم إلى الإمكان الذي لا يمكن تخطيه" (هيدجر، م، 2012، 457) فحينما يتقبل الإنسان الموت باعتباره أكثر إمكانية الفرد الذاتية، فإنه يجعل من موته حدثا ذاتيا لا يخرج عن حريته، فالموت كيفية وجود يتحملها هذا "الدازين" الذي يحيا القلق المتجه نحو العدم.

خلاصة القول هي أن القلق يكشف للأنية إمكاناتها في اختيار كينونة الوجود الأصيل، وأنّها كينونة حرّة تنقذ نفسها من السّقوط، وتخرج من الكلية المجتمعية الزائفة إلى وجود يمتلك حرّيته. إن الوجود المفعم بالقلق يدفع "بالدازين" إلى الارتداد إلى الذات، وإلى الحقيقة التي مفادها أنّ الإنسان وحده يملك القدرة على فهم الوجود وكيف يجعله أصيلا. إن خلاص "الدازين" من القلق يكون عندما يحقق الوجود الأصيل بفعل الحرية في جعل المصير حدثا حرا؛ لأن هذه الامكانية هي للذات الإنسانية وحدها.

4-سارتر/ القلق نحو تحقيق الماهية

تعرف فلسفة "سارتر" الفرنسي على أنّها فلسفة الحرّية؛ لأنها اعتبرت الماهية تسبق كل وجود. وهذا يعني أن الإنسان باعتباره حرّا ملزم على تحقيق الماهية أو الكينونة وفق المشروع الذي يختاره، والمعنى الذي يريد أن يكون عليه. فما يحققه الإنسان باختياراته الحرة

هو الدلالة على وجوده كوجود أصيل. والذات في سعيها لتحقيق هذا المشروع الوجودي يلازمها القلق. الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن مصدر وطبيعة هذا الشعور، وكذا عن القيمة التي تمنحها إياه فلسفة تضع الحرّية أساسا لكل وجود. وأول ما يستوقفنا في فكر "سارتر" هو تمييزه لأقسام الوجود. الوجود في ذاته، والوجود لذاته، ثم الوجود الآخر.

يعني "بالوجود في ذاته" وجود الأشياء في العالم، ويتصف أنه صلب ممتلئ ومعتم لا وجدان له، إنه يشمل الموجود المتحجر. وأما "الوجود لذاته" فهو الوجود الإنساني بوصفه وعي وحرية. وجود منظور إليه في ذاته وكأنه في وحدة وانعزال. الوجود لذاته يمثله الإنسان الذي يتجاوز الوجود المادي والأشياء بوجه عام، فهو وجود متغير متحرك قوامه النزوع المستمر نحو المستقبل؛ قصد تحقيق مشروع الوجود أو الماهية.

الوجود لذاته يعني به أيضا الكائن الذي بفضله يأتي العدم إلى الوجود، أو هو الإنسان من حيث هو حرّية تفرز العدم إلى العالم. هذا الوجود ينفي ذاته، ويسعى دائما إلى أن يكون شيئا آخر غير الشيء الذي يتحدد به في لحظة معينة. فمسألة الحرّية عند "سارتر" مرتبطة بمسألة العدم من حيث هي شرط لازم لظهوره. والعدم هو الذي يفصل الإنسان عن ماهيته. بمعنى أوضح الإنسان حرّية، والحرّية هي العدم الذي قد كان في صميم الإنسان ويحمل الأنية على أن تصنع نفسها بدلا من أن تكون. إنّ الوجود الإنساني يؤكد "سارتر" لا ينحصر في مكونات معطاة مسبقا، وإنّما بظهوره إلى العالم تتحدد الخطوات الكبرى التي سينجز وفقها مشروع الوجود. فليست هناك ماهية في الأصل أو سابقة عن الوجود، وإنما هي لاحقة له. ويترتب عن إنكار الماهية حقيقة مفادها أن الحرية الإنسانية هي صميم صدر كل اختيار. فقد كتب في "الكينونة والعدم " "إنّ وجود الوجود لذاته يتحكم في ماهيته" (Sartre, J.P., 1943, 560) وإنه يتميز عن غيره من الموجودات في العالم وفي علاقته بالعالم "فليست علاقة الوجود بالماهية لدى الإنسان مشابهة لما هي عليه عند أشياء العالم. تسبق الحرّية الإنسانية ماهية الإنسان وتجعلها ممكنة، إنّ ماهية الكائن الإنساني معلقة داخل حريته." (Sartre, J.P., 1943, 61). إن الحرّية هي الكائن الإنساني حين يضع ماضيه خارج وجوده، ويوّلد عدمه الخاص. والوجود بهذا المعنى لا يمكن أن يكون إلا للإنسان. إنه يأتي كنشاط مستمر للحرية. والكينونة ليست إلا الحرّية التي بواسطتها يأتي العدم. ومن هذا المنطلق، ينظر "سارتر" إلى الإنسان على أنه سلسلة من الاختيارات نحو تحقيق مشروع الوجود.

إذا كان الإنسان حرية، فإن هذه الحرية يطبعها القلق. ويشرح في كتاباته الأولى علاقة الوعي بالحرّية، وعلاقة الحرّية بالقلق في كتاباته الفلسفية والأدبية نختار منها على سبيل المثال رواية "الغثيان" ففيها يبيّن أن لحظة وعي الإنسان تكشف عن لامعقولية وعبث الوجود، وعلى الطابع العرضي لموجودات هذا العالم الذي لا تحكمه أية قواعد ثابتة، بل هو وجود تحكمه العبثية، فيه تنزلق كلّ الموجودات وتتلاشى. وينتج عن هذا الانزلاق اليومي للعالم

شعور الإنسان بالغثيان، وليس الغثيان إلا تعبيرا عن قلق الحرية في عالم العبث واللامعقولية. إنه كشف أيضا عن الوعي وعن العدم. فالعدم ينكشف في القلق بسبب تلاشي الموجودات وبسبب العبث. ومن هنا تطرح مشكلة الحرّية بوصفها العدم نفسه، بمعنى آخر، تطرح مشكلة الإمكانية التي يملكها الإنسان بوصفه وعي في أن يكون الموجود الذي ليس هو، وفي ألا يكون الموجود الذي هو. فبهذا الوعي، وبهذه الحرّية يتميز الإنسان عن غيره من الموجودات في أن يختار المعنى الذي يريد أن يكون عليه وأن يحقق الماهية. إن الإنسان حرية، وهذه الحرية ليست هدية، بقدر ماهي مسؤولية والتزام؛ ولأنها شهادة الوجود على وجوده، يعتبرها "سارتر" القيمة الوحيدة والمطلقة. وفي هذا السياق تعتبر تجربة الغثيان تجربة ذات دلالة ميتافزيقية؛ لأنها تكشف عن رؤية جديدة للعالم وللأشياء وللإنسان، وذلك من خلال ما بينته وما كشفت عنه من وجود يلازمه القلق. والوجود الذي من شأنه القلق هو الوجود الذي يضع نفسه موضع تساؤل يؤكد "سارتر" "ففي القلق يثار إشكال الحرّية بالنسبة لذاتها". (Sartre, J.P., 1943 66)

بتعبير آخر، فإن الإنسان يعي ذاته في الحرّية "ففي حالة القلق يعي الإنسان حرّيته، أو إذا شئنا، القلق هو أسلوب وجود الحرّية من حيث هي وعي بوجودها. وفي حالة القلق تكون الحرّية في كينونتها موضع تساؤل بالنسبة إلى ذاتها" (سارتر، ج. ب.، 2009، 78).

الحرّية إذن مصدر القلق. والقلق لا يعني الخوف، و"سارتر" يوافق "كيركجارد" و "هايدجر" في تمييزهما لهذين الشعورين أو الظاهرتين، ويؤكد أنّ (الخوف هو خوف من كائنات العالم) بينما (القلق هو قلق إزاء الأنا)، إنه قلق الأنا إزاء الماضي وإزاء المستقبل. ويوضّح هذه الفكرة بأمثلة عرضها في كتابه "الكينونة والعدم". وفكرة القلق إزاء المستقبل يوضّحها بمثال السائر في طريق ضيقة تطل على الهاوية، فما يصيب هذا السائر من جزع ومن دوار ليس خوفه من الوقوع في الهاوية، وإنمّا خوفه من أن يلقي بنفسه فيها. فقد أكون سائرا في هذه الطريق، وأرى الخطر ماثلا أمامي في الهاوية السحيقة، إنّه الخطر الذي علي أن أتجنبه، لكن ثمة احتمالات قد تحوّله من مجرّد خطر إلى حقيقة واقعة، فقد تنهار الأرض الرخوة من تحت قدمي، أو قد تنزلق قدمي على حجر صغير واقع في الهاوية. إنني عندئذ وإلى هذا الحد أخاف من الهاوية ومن الخطر الذي يأتيني من الخارج، كأنني موضوع لا يملك في ذاته شيئا من مستقبله، ولكنّ المسألة لا تقف عند هذا الحدّ، فأنا لست مجرّد موضوع، وإنما أنا ذات تدفع عنها خطر الموقف الذي يهدّدني، فقد أحترس من الأحجار وقد أبتعد عن حافة الطريق، فهناك إذن إمكانياتي أنا، وهي إمكانيات لا تأتيني من الخارج، ولا تتحدد بعوامل خارجية وهي ليست إمكانيات، ولا يمكنها أن تكون كذلك، إلاّ لأنّ هناك بجانبها إمكانيات أخرى. فلا معنى لكوني أستطيع الاحتراس لو لم أستطع عكس ذلك. فأنا أستطيع أيضا ألا أحترس، وأقذف بنفسي في قلب الهاوية. إني أستطيع أن أفعل كل ذلك؛ لأنّه إذا لم يكن ثمة ما يجبرني على إنقاذ حياتي، فليس ثمة ما يمنعني من الاندفاع في الهاوية، وهكذا فإنّ حياتي ليست متعلقة بالطريق

الضيقة، وليست متوقفة على عوامل خارجية، وإنّما هي متعلقة بي أنا، وبما سأفعل في المستقبل وهو لم يتحدد بعد. فأنا حر إزاء هذا المستقبل، وقلق إزاءه في ذات الوقت. إنّي أشعر بهذه الحرّية وبتعدد إمكانياتي، فأشعر بأن حياتي وموتي كليهما متعلقان بحريتي وحدها وهذا هو القلق.

يتحدث سارتر عن القلق تجاه الماضي من خلال مثال المقامر فيقول، فقد أكون مقامرا، وأقرّر بمحض حريتي وبنيّة خالصة أن أمتنع منذ اليوم عن لعب القمار، وأعتقد أنني أضع بمقتضى قراري هذا سدا منيعا بيني وبين اللعب، بحيث أستطيع أن ألجا إليه وأحتمي وراءه كلما راودني الإغراء في اللعب. إلا أنني أجد نفسي من جديد أمام طاولة اللعب، وربما اتجهت إلى عزمي السابق، فأرى على الفور أنه قد انهار، وأنني أصبحت عاجزا عن الاستعانة به. إنني أذكر عزمي السابق، ولكنني أذكره فحسب، أعنى أنه لم يعد إلا مجرّد ذكرى. لقد صممّت من قبل على عدم اللعب، ولكن هذا التصميم والعزم لم يعد له أي فاعلية أو أثر. إنه مجرّد أثر نفسي قد تجمد وانقضى، وأنا قد تجاوزته وأصبحت في حاجة إلى عزم جديد، بل وفي حاجة إلى أن أخلق بواعث هذا العزم الجديد، وهكذا أقف أمام طاولة اللعب وأنا أملك حريتي المطلقة، فلا شيء يمنعني كما لا شيء يجبرني على اللعب. إنني أعاني التجربة وأشعر بأني وحيد أمامها، وأنه ينبغي على أن أختار دون أن أجد في الماضي وفي عزيمتي الماضية ما يعينني على اختيار الراهن، عندئذ أشعر بالقلق. القلق إذن ينتاب الإنسان حين لا يجد في الماضي أو في المستقبل ما يحدد أفعاله وما يعينه على اختياراته. وإنما كل يتوقف على إرادته الحرة؛ لذلك يكون مسؤولا بشكل مطلق على الاختيار الذي يحقق به معناه هو ومعنى العالم ولهذا تدرك الحرّية في القلق. القلق هو إدراك الحرّية لذاتها عبر انعكاساتها على ذاتها، وبهذا المعنى القلق هو توسط؛ لأنه على الرغم من كونه وعيا مباشرا بذاته، ينبثق من سلب نداءات العالم، ويظهر حين أنسحب من العالم الذي كنت منخرطا فيه كي أدرك ذاتي كوعي يمتلك فهما ما قبل أنطولوجي لماهيته، وإحساسا بممكناته سابقا لأي حكم. فهو يتعارض مع الفكر الجدي الذي يدرك القيم انطلاقا من العالم ...في حال القلق، أدرك ذاتي على أنى حر بشكل كلى. إن الإنسان له القدرة على صنع نفسه، وأمامه إمكانات لا متناهية يختار بينها في تحقيق مشروع الوجود. فالحرية قدر الإنسان الذي لا يستطيع أن يهرب منه ولا أن يرفضه. وعليه فإنه مقسور عليها، ومحكوم عليه بالمسؤولية التي تلازمها. القلق في هذه الحال تعبير عن موقف الإنسان. إنه الوضع الذي يدرك فيه الإنسان معنى انفتاح المستقبل أمامه وهو يرى الهوة السحيقة التي تفصل قدراته المحدودة، وبين الإمكانات الهائلة التي يتعين عليه الاختيار بينها. وتجاه هذه الحرّية والمسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتق الإنسان، لا شك أن الكثير من الناس يحاولون تجنبها، وتجنب القلق الذي تثيره وهو ما يسميه "سارتر" "بسوء النية" أو الكذب على النفس الذي هو في الأساس الفرار من الحرّية، ومحاولة لخلق كينونة ثابته. فالسلوك الذي ينطوي على سوء النية يجعل الإنسان يخفي حريته، ليتحوّل إلى مجرّد "وجود في ذاته" يخضع للجبرية، وللعوامل الخارجية ولقوانين الطبيعة، وكذا لقرارات الآخرين؛ بهدف الهروب من المسؤولية والقلق.

الحرّية التي تلازمها المسؤولية المطلقة إذن هي محنة الإنسان ومصدر القلق. فالإنسان كما يتصور "سارتر" هو الوجود الذي قذف به إلى العالم، وترك فيه وحيدا لا سند ولا مرشد له سوى إرادته الحرة. هذا العالم الذي لا مكان فيه للإله ولا للمبرّرات النفسية والاجتماعية والتاريخية وغيرها. وعليه وحده أن يختار وجوده الماهوي والأخلاقي من خلال الإمكانات التي يملكها. ومسؤوليته كبيرة تجاه ذاته، وتجاه العالم باعتباره خالق معنى ذاته، ومعنى العالم وكذا القيم. إن مشكلة خلق القيم في عالم تغيب فيه كل المصادر الدينية والاجتماعية التي قد تعين الإنسان في اختياراته وتخفف من مسؤوليته لهي أكبر مصدر للقلق. الإنسان هنا وحده يختار الخير ويختار الشر (فالحرّية هي الأساس الوحيد للقيم) (سارتر، ج. ب.، 2009، 88) وعليه لا يوجد لدى هذا الإنسان ما يبرّر اختياره لقيم عن قيم أخرى غير حريته ذاتها. وهذا الاختيار لا يرتكز على أي أساس ثابت أو ضامن، وهو ما يجعل الحرية تقلق. وبمعنى أوضح الحرية تقلق من كونها خالقة للقيم؛ لأن الإنسان حينما يختار فهو يختار للإنسانية كلها ومسؤوليته تكون ثقيلة ومحنة. ففي كل اختيار يقوم به، يكون ملتزما ويلزم معه البشرية كلها، وفي كل اختيار وفعل يحدد نوع الإنسان الذي يكونه، ونوع العالم الذي يريد أن يحيا فيه.

هذا ما أكده "سارتر" في "الوجودية نزعة إنسانية" "حينما نقول إن الإنسان مسؤول عن ذاته، فإننا لا نقصد أنه مسؤول عن فرديته، وإنما هو مسؤول عن كل الناس" (Sater, J.P., 1968, 24) فالفاعل الأخلاقي لدى هذه الفلسفة يقصد إلى تحقيق الخير لذاته وللناس أجمعين، فلا يمكن للإنسان أن يختار الشر مثلا؛ لأن ما يختاره يكون دائما الخير، ولا شيء يمكن أن يكون خيرا لنا دون أن يكون كذلك للآخرين. يتصور "سارتر" "إن مسؤوليتنا أكبر بكثير مما نتصوره؛ ذلك لأنها تلزم كل الإنسانية" (Sarter, J.P., 1968, 26).

تنهي فلسفة "سارتر" في تناوله لمشكلة القلق أنه أنطولوجي يلازم الحرّية الإنسانية ويكشف عنها. وهو في ذات الوقت شهادة الوجود على وجوده. وهو دلالة على المسؤولية الملقاة على الإنسان وهو في نشاط وتجدّد مستمر خلال مسار تحقيق الماهية. يتحدث سارتر في "الكينونة والعدم "عن الفارين من القلق الذي هو في الواقع هروب من الحرية والمسؤولية، ويرى أن مثل هؤلاء يخدعون أنفسهم؛ لأنهم يحاولون إحالة الوجود إلى كينونة ثابتة، وهم يدركون أن هذه المحاولة مستحيلة؛ لذلك ينعتهم أحيانا بالجبناء، وأحيانا أخرى القذرون.

نخلص إلى أنّ "سارتر" يؤكّد على أنّ الإنسان تجاوز دائم لما هو عليه ولماضيه، وكذلك هو شروع دائم نحو المستقبل، وهذا التجاوز هو الذي يتيح للوعي مجال الحرّية "فالحرّية عند سارتر تتطلب نوعا من الانفصال الزمني بحيث يبدو قيام الحاضر -هو مجال الفعل الحر-إيذانا يكسر في سلسلة الزمن المتصل وإزاء هذا الانفصال يشعر الإنسان بنفسه في الخلاء، والعدم وينتابه عندئذ إحساس بالقلق والجزع." (شاروني، ح، 1963، 135).

يكشف لنا هذا التحليل أن الحرية مصدر قلق الإنسان في تجربته الفردية في تحقيق الماهية، ولأنه محكوم عليه بهذه الحرية، فإن الخلاص من القلق لا يكون إلا بتحقيق مسؤول للصورة

التي يريد أن يكون عليها من خلال المشروع الذي يسعى إلى تحقيقه، ومن خلال اعترافه بأنه وحده خالق ماهيته.

تخلص هذه الدراسة المقارنة لموضوع القلق لدى الفلاسفة الثلاثة إلى تأكيد أهمية هذه الظاهرة في تحليل الوجود. ورغم اختلاف تصوراتهم لبواعث هذا الشعور وما يرمي إليه، فهم يتفقون جميعا رغم ذلك على أنه ميزة الإنسان في وضع الصيرورة. فالقلق عند "كيركجارد" وفق ما جاء في كتابه "مفهوم القلق" وكتاباته الأخرى كما أشرنا آنفا ينطوي على معنيين، أولهما نفسي بحيث يرتبط بالإحساس بالذنب والخطيئة التي قال عنها إنها تتوارثها الأجيال عبر التكرار، وهو التصور الذي أظهر توجهاته المسيحية خاصة عندما ربط ذلك بالجنسانية التي مثلت فيما بعد أساس التحليل النفسي. والمعنى الثاني، أنطولوجي يرتبط بالدهشة التي يثيرها العدم. والنتيجة بين البعدين النفسي والأنطولوجي هي الحرّية. بينما ينبع هذا القلق عند "هايدجر" من العدم المحيط بالوجود، أو الماثل في كل الوجود، في الأشياء، وفي الأحياء، فيكشف لنا على أننا موجودات متناهية أوعن تناهي الوجود. بهذا التصور، قدم القلق على أنه رهبة العدم، وهو الأمر الذي تجاوزه "سارتر" في فلسفته في أن الإنسان ليس موجودا من أجل الموت، وأن مصدر القلق لدى هذا الانسان هو الحرّية بوصفها صميم الوجود، وعن المسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتقه، وهكذا يأتي القلق من الحرّية وهو يكشف عن العدم.

إن ما حاولنا أن نبيّنه من هذه الدراسة هو اختلاف هذه الفلسفات في فهمها لطبيعة الإمكان من حيث يكشف عن القلق. فقد نظر "هايدجر" إلى الحرّية على أنها الإمكانية، ونظر إلى الموت على أنّه الإمكانية المطلقة باعتباره نهاية وغاية الإمكانيات الإنسانية كلّها، وأن الموت يكون مرتبطا بالحرّية ومجالا لها. وأما "سارتر" فليست الحرّية عنده هي الإمكان، وإنّما هي الاختيار الحر القائم على النفي والملاشاة والشروع المستمر للأنا، فحرية الأنا هي في تجاوزه المستمر لوضعه الراهن نحو المستقبل. أما الموت فهو ملاشاة لهذا التجاوز وبالتالي ملاشاة للأنا ذاته. الموت ينزع عن الحياة كل معنى؛ لأنه يضع نهاية لكل نشاط له معنى. الانتحار إذن عند "سارتر" ليس له دلالة باعتباره منتفي المعنى؛ لأنه يمنع المستقبل. فالمستقبل وحده يضفي على مشاريع الإنسان المعنى. يكتب "سارتر" في هذا السياق (ماذا يمكن أن يعني انتظار الموت إذا لم يكن انتظار لحادث غير معين ينتهي بكل انتظار إلى انتفاء المعنى بما في ذلك انتظار الموت نفسه؟ إن انتظار الموت يهدم نفسه بنفسه، لأنه يكون نفيا لكل انتظار ...ولا يمكن أن أتعقل شروعي نحو موتي أنا ... لأن مثل هذا الشروع يكون تحطيما لكل المشروعات ...وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون الموت إمكانيتي الخاصة، ولا يمكن أن يكون واحدا من إمكانياتي.) (Sater, J.P., 1968, 26) وإذا كان الموت عند "سارتر" ملاشاة لجميع إمكانيات الوعي فهو منتفي المعنى.

رغم تمايز تحليلات هذه الفلسفات إلا أنها تتفق جوهريا على أن القلق من أساس أنطولوجي تتصف به الذات المفردة. فالقلق يعتريها أثناء مواجهتها لمستقبلها المليء

بالإمكانات التي يتوجب عليها أن تختار بينها. فصعوبة الموقف جعل كيركجارد يصفه على أنه دوار الحرية.

القلق إذن مرتبط بالإمكان، ويكشف عن الحرّية الإنسانية وعلى اختيار الفعل واتخاذ القرار، ومن خلاله تسعى الذات إلى تحقيق وجود ها الأصيل وأن تخرج من عالم الزيف والاغتراب.

بيّنت هذه الفلسفات أيضا أن القلق يكشف عن العدم وعن إمكان الإنسان من بناء الكينونة، و"كيركجارد" أول من تحدث عن علاقة القلق بالعدم. ويشرح أنه لا يرتبط بموضوع معين، وإنما هو مواجهة الوجود بلا تعيين لذلك يكون موضوعه العدم. رغم أن فكرة العدم تبدو غامضة في فلسفته؛ لارتباطها بفكرة الخطيئة الأصلية، إلا أنها كانت مصدرا هاما تستوحيه فلسفة "هايدجر"." فقد مضى "هايدجر" بفكرة العدم من المجال النفسي الذي اقتصر عليه "كيركجور" إلى المجال الكوني الوجودي الذي انتهت إليه فلسفته، وهو المجال نفسه الذي سنجده لفكرة العدم عند "سارتر." (شاروني، ح، 1963، 61).

5 - الخاتمة

تنتهي هذه الفلسفات إلى فكرة مفادها أن القلق شعور أنطولوجي يلازم الذات المفردة في تحقيق ذاتها، وفي تحقيق وجودها الأصيل، وأنه الكفيل بإنقاذها من الاغتراب عن كينونتها، وهو وحده ينتشلها من السّقوط من العالم الزائف على حد تعبير "هيدجر". وعلى هذا الأساس اعتبرته الفلسفة الوجودية بشكل عام من طبيعة إيجابية.

وتخلص أيضا تحليلات هؤلاء الفلاسفة إلى أن ظاهرة القلق تبيّن أن الوجود الذي يتمتع به الإنسان ليس هو الوجود بمعنى الكينونة، وإنما هو الوجود بمعنى الصيرورة. وهي تتفق جميعا أنه ينبثق من شعور الآنية الملقاة في العالم، وبقيت فيه مهجورة من غير سند أو مبررات، ورغم ذلك فهي مرغمة على الاختيار بين الإمكانات المتاحة لها في تكوين ذاتها باعتبارها لم توجد بعد. فالذات أمام اختياراتها الحرة ذات يلازمها القلق. وحينما تخاطر أو تتواجد في موقف تكشف عن حريتها وإمكاناتها في تحقيق وجودها الأصيل. وبتحقيق هذا الوجود تنقذ الذات نفسها من القلق. الخلاص في تصور "كيركجارد" يتحقق بالإيمان بالإله المسيحي، وعند "هيدجر" يحدث عندما تنتشل الذات نفسها من الوجود الزائف ومن السقوط في الهم نحو تحقيق الوجود الأصيل. وأما في تصور "سارتر" فإن الخلاص يتم بتحقيق الذات لمشروعها وماهيتها؛ لأن الإنسان في النهاية هو ما يحققه من معنى لوجوده هو أولا وللعالم ثانيا.

تبقى قيمة تحليلات فلاسفة الوجود لظاهرة القلق تكمن فيما يكشفه هذا الشعور من حرية إنسانية، وإمكانات الاختيار التي تجعل وجوده وجودا مسؤولا ومطمئنا في عالم اللامعقولية والاغتراب. وكذا فيما قدمته كمشكلة بحث لم تنتبه إليها السيكولوجيا. فقد استفاد علم النفس مما قدمه له "كيركجارد" في هذا السياق حينما لفت الانتباه إلى الاهتمام بالقلق كشعور أنطولوجي يلازم الإنسان في تجربته الوجودية، وفي تحقيق المصير لا كحالة مرضية أو حالة من حالات الانفعال. وعليه فإن ما قدمه التحليل الفلسفي الوجودي لهذا الشعور بوصفه ملازما للمعرفة ولممارسة الحرية خطوة جد هامة في تاريخ الفكر الفلسفي.

قائمة المراجع

أولا: قائمة المراجع الأجنبية

1 sorien Kierkegaard, (1949), *le concept de l'angoisse*, édition Gallimard.

2 jean Paul Sartre, (1943*), l'être et le néant* ,édition Gallimard.

3 jean Paul Sartre, (1964), l'existentialisme *est un humanisme*, édition Nagel.

4 jean Wahl, (1954), *les philosophies de l'existence*, Paris Armant colin.

ثانيا: قائمة المراجع العربية

1-جون بول سارتر، (2009)، الوجود والعدم، ترجمة نيكولا متيني، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان.

2-مارتن هايدجر، (2012)، الكينونة والزمان، ترجمة فتحي المسكيني، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة.

3-مارتن هايدجر، (1977)، نداء الحقيقة، ترجمة عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة والنشر القاهرة.

4-إمام عبد الفتاح إمام، (1986)، كير كجور رائد الوجودية الجزء الأول، دار الثقافة للنشر والتوزيع.

5-إمام عبد الفتاح إمام، (1986)، كيركجور، الجزء الثاني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1986.

6-ريجيس جوليفيه، (1988)، المذاهب الوجودية من كيركجور إلى سارتر، ترجمة فؤاد كامل، مراجعة محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الأدب، بيروت، الطبعة الأولى.

7-عبد الرحمان بدوي، (1980)، دراسات في الفلسفة الوجودية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى.

9-عبد الحي ازرقان، (2012)، الاتجاه الفوضوي في فلسفة سارتر، دار الأمان الرباط، الطبعة الأولى.

11-علي حنفي محمود، (1980)، جدل العقل والوجود، دراسة في فلسفة هيجل وكير كجور. دار المعرفة الجامعية الإسكندرية.